

الإضطرابات النفسية : أسبابها والوقاية منها من منظور إسلامي

د. مسعد احمد النجار*

مقدمة :

عندما يسمع الإنسان حديثاً عن الصحة النفسية ، فإنه يجذب إلى ذلك الحديث لارتباطه بالسعادة والأمن والطمأنينة وراحة البال . لأن الإنسان دائماً يبحث عن السعادة أو عن أي شيء يجلب له السعادة وراحة البال ، ويتعد عن الأشياء التي تعكر صفو حياته وتحرمه أو تقلل من سعادته وتؤدي به إلى الاضطراب النفسي . وهذه هي طبيعة الإنسان في الحياة .

ومن السنن الإلهية الثابتة في حياة الناس أن النتائج دائماً تأتي بعد المقدمات في كل شيء . فضعف الصحة النفسية وظهور اضطراباتها في فكر وسلوك الفرد هي نتيجة لمقدمات ، وتلك المقدمات هي المخالفات التي ارتكبها الفرد في الماضي وما زال مستمراً في ارتكابها في الحاضر . فإذا كان هذا هو حال بعض الناس ، فإن الطمأنينة وراحة البال والسعادة التي يتشدها بعيدة المنال إن لم تكن مستحيلة

مفهوم الاضطرابات النفسية :

جاء في معجم علم النفس والتحليل النفسي عن الاضطراب أنه " مصطلح يطلق على الاضطرابات التي تصيب الشخصية من ناحية التفكير أو الانفعال أو السلوك، ويعني سوء توافق الفرد مع ذاته ومع الواقع الاجتماعي الذي يعيش فيه " . (طه وآخرون {د.ت} ص 53) .

* رئيس قسم علم النفس / كلية الآداب والألسن / جامعة دمار .

والاضطرابات النفسية ينتج عنها انحرافات سلوكية، والشخص المنحرف هو " الذي كثرت سلوكياته المنحرفة، وقَلَّت سلوكياته السوية، وغلب على حالته النفسية الوهن، وظهر سوء خلقه مع ربه أو مع نفسه أو مع الناس في مواقف كثيرة، فيسوء توافقه ويزداد همه، ويشعر بالتوتر والقلق والصراع، ويشقى في حياته بما تجلبه عليه سلوكياته المنحرفة، وأفكاره المختلة، ومشاعره المضطربة ويغدو في حاجة إلى رعاية وعلاج لانحرافاتة " (مرسي، 1988م، ص 178).

مدى انتشار الاضطرابات النفسية:

تكثر الاضطرابات النفسية كلما كثرت مشاكل الحياة، وكثرت متطلبات الحياة العصرية، مع ضعف الجانب الإيماني أو الروحي في الإنسان، ومن ثم تكثر مخالفات الإنسان التي تؤدي به إلى الاضطراب النفسي، فمثلاً: " القلق النفسي هو بنسبة متصاعدة كلما تقدمت الحضارة المادية وابتعدت الإنسانية عن فهم تعاليم الله والالتزام بها، والإحصائيات اليوم تؤكد ذلك، فلقد استهلكت فرنسا في عام 1982م أكثر من مائة مليون علبة دواء من المنومات والمهدئات، وفي الولايات المتحدة الأمريكية، هناك وصفة واحدة لدواء مهدئ للأعصاب من كل أربع وصفات طبية عادية. أما الاضطرابات النفسية والمشاكل الاجتماعية والمآسي الأخلاقية والانتحار، فهي الأعلى نسبة في البلدان المتقدمة على صعيد الحضارة المادية والبعيد عن تعاليم السماء، مع أن هذه البلاد المتحضرة، كما يصفونها، قد أمنت لأفرادها سبل الرفاهية المادية والضمان الاجتماعي من الولادة وحتى الممات " (الشريف، 1992م، ص 61).

أسباب الاضطرابات النفسية :

أختلف المنظرون في تفسيرهم لظهور الاضطرابات النفسية اختلافاً كبيراً، وهذا الاختلاف شيء طبيعي، لأن كل منظر متأثر بثقافته ومجتمعه وبالزمان الذي وجد فيه وبالمنهج الذي استخدمه في دراسته، ولذا نجد الشناوي (1993م) يقول: " إذا بحثنا مع أصحاب النظريات الأساسية في علم النفس عن أسباب الاضطرابات النفسية التي يشيع أن يتعامل معها المرشدون والمعالجون النفسيون، لوجدناهم يضعون لها أسباباً افتراضية إلى حد كبير، قليل منها قام على أساس تجريبي. وحتى هذا الجزء الذي أهتم بالجانب التجريبي، نُقل مباشرةً من تجارب أجريت على الحيوانات كالقطط والكلاب والحمام والقرود " (ص 393).

أما الطيبة النفسانية (ك. هورني) فتحدد أسباب الاضطرابات النفسية فتقول في مؤتمر بنيويورك: " إن الحضارة الحديثة تسير بقدوم مادية واحدة أحرزت فيها منجزات ومعجزات، لكن الفقر المعنوي والسروري الناضب فيها كَوَّن في مسيرتها الخلل والتصدُّع وسادت حياة البشر فردية طاغية، وتنافس عدواني، وعدم مساواة في الفرص، وتضخم مالي رهيب، وغلاء فاحش، وأزمات في العقول والنفوس لا حلول لها، وانتشار للمخدرات والجرائم بشكل لا يمكن ضبطه، واغتراب وعزلة وجدانية بين

الناس وفي حياتهم، وظهور انفصام في الشخصية وحالات عُصايب و اكتئابية لا عهد لعصر من العصور السابقة بها كما وكيفا " (ياسين، 1988م، ص93).

ولزيدان (1993م) رأي في أسباب الانحراف باعتباره مظهرا سلوكيا أو نتيجة للاضطراب النفسي فيرى أن الحياة " موضع لامتحان الإنسان واختباره، وأن الله خلقه صالحا لفعال الخير والشر، وهيا له من الأسباب ما يمكن الاستعانة بما على سلوك أي من السيلين، وأودع في فطرته ما يجعله يستحسن الحسن ويستقبح القبيح، وبين له عن طريق الوحي ما يسلكه وما يتركه، ثم جعل جوهر الاختيار هو اختيار الإنسان بين الإيمان والكفر وبين السواء والانحراف، وتحدد بناءً على صلة الإنسان بالله- إلى حد كبير- سائر أنواع سلوكه الأخرى، كما إن لسلوك الإنسان المبني على اختياره أثر تراكمي، بمعنى أن فعل الخير يقود إلى المزيد منه، وقد ثبت من الدراسات الأمريكية وجود علاقة عكسية دالة إحصائياً بين مستوى التدين والسلوك الإجرامي، وذلك أن ضعف الإيمان بالله أو عدم وجوده بالمرّة يفقد الإنسان مانعاً قوياً من الانحراف، وتوجد بالإضافة إلى ذلك عوامل مشجعة سواء كانت هذه العوامل راجعة إلى شخص المنحرف مثل حاجة غير مشبعة، أو إلحاح شهوة، أو إلى الظروف المحيطة به، مثل رفاق السوء أو شيوع الانحراف في المجتمع، ورغم هذه العوامل يمكن للإنسان أن يراجع نفسه ويعيد النظر في اختياراته " . (ص: 50).

ومن زاوية أخرى يرى الباحث أن أسباب الاضطرابات النفسية تكمن في المخالفات التي يرتكبها الإنسان " لأن الله سبحانه وتعالى وضع ضوابط وحدود لأفكار الإنسان وأقواله وأفعاله، ضمن منهج كامل ليس فيه نقص، وشامل لجميع أنشطة الإنسان في الحياة الدنيا، ومربوط أو متصل بالحساب والجزاء في اليوم الآخر - بعد الممات - فإذا انتقلنا إلى واقع الحياة والمشاهدات اليومية نرى أن الإنسان الذي يكرر ارتكاب المخالفة لا بد أن تقع عليه تبعات تلك المخالفة. فمثلاً: الشخص الذي يخالف الإرشادات الصحية في مأكله ومشربه وملبسه ومسكنه والوقاية من الأمراض السارية والمعدية وغيرها، لا بد أن يقع أو يصاب بالمرض. والشخص الذي يخالف لوائح وأنظمة المرور والقانون يقع تحت طائلة العقاب. وكذلك الموظف الذي يخالف لوائح وأنظمة المؤسسة أو العمل يتعرض للمحاسبة والجزاءات. وعلى نفس المنوال نجد أن الإنسان الذي يخالف القيم والأخلاق والتوجيهات الدينية، لا بد أن يقع تحت طائلة العقاب النفسي على الأقل، فتأنيب الضمير والشعور بالذنب، والقلق وعدم الشعور بالرضى والأمن النفسي... الخ كلها ناتجة عن إصرار الإنسان على المخالفة، وعدم التزامه بتوجيهات الإسلام في جميع مناسط الحياة " النجار، 1999م، ص 108). ولذا قال الله تعالى: ﴿... تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (البقرة: 229).

وفي الحديث عن أبي ثعلبة الخشني رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: [إن الله تعالى فرض فرائض فلا تضيعوها، وحد حدوداً فلا تعتدوها، وحرم أشياء فلا تنتهكوها، وسكت عن أشياء رحمة لكم غير نسيان فلا تبحثوا عنها] . (أخرجه الدار قطني، في ابن رجب (د. ت)، ص 261).

ومن تلك المخالفات ما يأتي:

أولاً: نسيان الإنسان لمهمته في الحياة، وغفلة عن اليوم الآخر:

أخبر المولى جل وعلا الملائكة أنه سيخلق بشراً من طين، وسيجعله خليفة في الأرض ليعمرها وفق منهج الله وتوجيهاته، وستكون نهاية الإنسان إلى الله ليحاسبه ويجازيه عن أعماله في الحياة الدنيا، قال تعالى: ﴿... هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا...﴾ (هود: 61). وقال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِمَّن بَعَدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ (يونس: 14).

وقال تعالى: ﴿الْأَنْزُرُ وَالزَّرَّةُ وَزُرٌّ أُخْرَى* وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى* وَأَنْ سَعِيهِ سَوْفَ يَرَى* ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى* وَأَنْ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾ (النجم: 38-42). وقال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (البقرة: 281).

فإذا قام الإنسان بتلك المهمة طمئناً ومُتبعاً لمنهج الله وتوجيهاته فتعد كل أنشطته عبادة لله، لأن الإتيان هو أحد معاني العبادة، وبذلك يكون الإنسان قد حقق الغاية التي خلقه الله من أجلها، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات: 56). وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ صَلَّيْتُ وَكُنَّيْتُ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ* لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ (الأنعام: 162-163). أما إذا نسي الإنسان أو تناسى مهمته التي كلفه الله بها، وخالف منهج الله في عمارة الأرض وأنكر الحساب والجزاء في الآخرة فسوف يشعر بأن حياته ليس لها معنى ولا هدف سام يسعى إلى تحقيقه، ومن ثم سيجد ويجتهد في حياته ضمن حدود مصلحته الدنيوية والآنية فقط، ولا تهمه العاقبة أو الوسيلة التي سيستخدمها في ذلك، وحتماً سيضل ويشقى، وتكون حياته ضنكا في ضنك مهما تظاهر بغير ذلك، لأن الله تعالى وضع قاعدة لسكان الأرض هي قوله تعالى: ﴿... فَإِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلَّ وَلَا يَشْقَى* وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ (طه: 123-124).

ثانياً: عدم الاستخدام الأمثل للقدرات التي منحها الله للإنسان ومخالفة توجيهات الدين:

زود الخالق سبحانه وتعالى الإنسان بقدرات تؤهله وتساعد في أداء مهمته في الحياة، وتمكنه من اكتشاف الأسرار والقوانين والعلاقات التي تربط بين المتغيرات، والتي يترتب عليها التحكم والاستفادة من مخلوقات الله المبتوثة في الكون، والتي سخرها سبحانه للإنسان، ودعم ذلك بالدين الذي يشتمل على معايير وضوابط للسلوك، فإذا أحسن استخدام هذه القدرات وفق موجبات الوحي فسوف ينعم بالسعادة في دنياه وآخرته. ومع وجود تلك القدرات وتوجيهات الوحي والعبر الكثيرة في التاريخ، يسير الإنسان في الطريق الخطأ بكامل إرادته واختياره، مع إحساسه وعلمه بأن الكثير من أقواله وأفعاله غير سليمة

ومتنافية مع العقل والدين، فيبدو وكأنه مسلوب الإرادة، ومع استمرار المخالفات يصاب الإنسان بالعقلة التي تؤدي به إلى النار، نتيجة إهماله وعدم الاستخدام الأمثل لقدراته، وقد وصف الله تعالى الغافلين بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْعَافِلُونَ﴾ (الأعراف: 179).

وينتج عن تلك المخالفات: القلق والشعور بالذنب عندما يشعر الإنسان بأن نفسه تلومه، وان سلوكه يخالف لما يعتقد، ومخالف أيضاً لتوجيهات الدين وتعاليمه، فتكون الاضطرابات النفسية هي النتيجة الطبيعية لذلك السلوك غير السوي.

ثالثاً: الإفراط أو التفريط في تلبية الاحتياجات الجسمية والنفسية:

من نتائج وقوع الإنسان في المخالفة الثانية -عدم الإفادة من قدراته ومخالفة توجيهات الدين - وقوعه في المخالفة الثالثة، وهي أن الله تعالى خلق الإنسان بطبيعة مزدوجة (جسم وروح) في كيان واحد، ولكل جزء من هذا التكوين احتياجات يجب على الإنسان العمل على تليتها، وهي عبارة عن دوافع فطرية تدفع الإنسان إلى القيام بسلوك مُعَيَّن، وهي نوعان؛ الأولى دوافع فسيولوجية تتبع الجانب الجسدي للإنسان مثل: الجوع، العطش، الجنس، الإخراج، الراحة والنوم، تجنب الحرارة أو البرودة... الخ. والثاني، دوافع نفسية تتبع الجانب الروحي أو النفسي في الإنسان مثل: التدين، حب الاستشهاد في سبيل الله، حب الاستطلاع، حب التملك، حب الانتماء، حب التقدير، حب الجاه... الخ. وهذه الدوافع تبقى مع الإنسان طيلة حياته، مع التفاوت في القوة، حسب المرحلة العمرية التي يمر بها الإنسان، وحسب الحالة الإيمانية للفرد. ولكي تستقيم حياة الإنسان، ويسعد في دنياه وآخرته، لابد له من تلبية تلك الاحتياجات -الفسولوجية والنفسية- بتوازن واتزان، ودون إفراط أو تفريط، مع مراعاة الضوابط الشرعية أثناء تلبية تلك الاحتياجات من حيث الكم والكيف، قال تعالى: ﴿وَاتَّبِعْ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيكَ مِنَ الدُّنْيَا...﴾ (القصص: 77). ولكن مع الأسف يقع الكثير من الناس في المخالفات، إما في الإفراط أو التفريط أثناء تليتها للاحتياجات الجسدية أو النفسية ولا يتقيدون بالضوابط الشرعية سواء من حيث الكم أم الكيف، ويكونون بذلك عبيداً لشهواتهم وأهوائهم، ولا يستمعون إلى صوت العقل وتوجيهات الدين، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: [تعس عبد الدينار والدرهم والقטיפه والخمصة، إن أعطي رضى وإن لم يعط لن يرضى]

(صحيح البخاري، رقم الحديث 6435).

والنتيجة الطبيعية للإفراط أو التفريط في تلبية الاحتياجات الجسدية والنفسية هو الشقاء والاضطراب وعدم الإحساس بالسعادة والأمن. والوقوع في الأمراض العضوية المختلفة، وعندها تفسد حياة من ارتكب هذه المخالفة.

رابعاً : عدم تجنب الإنسان للبيئة الفاسدة:

الإنسان كائن اجتماعي، يحتاج إلى الآخرين ولا يستطيع العيش بمفرده، وخلال تلك المعاشة يتأثر ويؤثر في البيئة الاجتماعية التي يعيش فيها، ومن ثم فإن للبيئة الاجتماعية تأثيراً مؤكداً على سلوك الإنسان إيجابياً أم سلبياً. فمن شرائح المجتمع التي لها تأثير كبير على سلوك الإنسان جلساء الإنسان وأصدقائه، ولذا بين رسول الله ﷺ أهمية حسن اختيار الجلساء والأصدقاء ، لأن لهم تأثيراً على سلوك الفرد وفكره، فعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : [إنما مثل الجليس الصالح وجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكبر، فحامل المسك إما أن يحذيك ، وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحاً طيبة. ونافخ الكبر إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد منه ريحاً خبيثة] (صحيح مسلم، رقم الحديث 2628).

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: [لا تصاحب إلا مؤمناً، ولا يأكل طعامك إلا تقي] (سنن الترمذي، رقم الحديث 2395).

أما المجتمع وما به من عادات اجتماعية ونظم سياسية وتربوية واقتصادية وإعلامية... الخ فله تأثير واضح على النمط العام لسلوك الأفراد الذين يعيشون فيه (مجتمع إسلامي، مجتمع يهودي، مجتمع شيوعي، مجتمع رأسمالي، مجتمع لاديني، مجتمع تسوده الديمقراطية أو الديكتاتورية... الخ) فما على الإنسان سوى الحرص على سلامة المجتمع من الانحراف عن طريق النصيحة واستشعار أو تحمّل المسؤولية الفردية والجماعية في المجتمع الذي يعيش فيه، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : [من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان] (صحيح مسلم، رقم الحديث 1829)، فالمسؤولية جماعية ولا أحد معفي منها، كل حسب موقعه ومسئوليته، فعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : [ألا كلكم راع، وكلكم مسؤول عن رعيته...] (صحيح مسلم، رقم الحديث 1829). لأن التخلي عن المسؤولية الجماعية يوقع الضرر والهلاك بالأفراد والمجتمع كله وقد ضرب لنا رسول الله ﷺ مثلاً على ذلك ، فعن النعمان بن بشير رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : [مثل القائم على حدود الله والواقع فيها، كمثل قوم استهموا على سفينة، فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها: فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم، فقالوا : لو آنا خرقنا في نصيبنا خرقتنا ولم نؤذ من فوقنا، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً] (صحيح البخاري، رقم الحديث 2493). فإذا حاول الإنسان القيام بمسؤولياته تجاه مجتمعه وتبع من ذلك ولم يستطع، بل وتحقق لديه وقوع الضرر الفادح بمن حاول إصلاح المجتمع ، عندئذ وجب عليه الهجرة إلى مجتمع آخر تسوده القيم والأخلاق الفاضلة، ولذا جاءت الإشارة في حديث رسول الله ﷺ عن الرجل الذي قتل مائة نفس ويريد أن يتوب فقيل له [... انطلق إلى أرض كذا

وكذا، فإن بها أناسا يعبدون الله فأعبد الله معهم، ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء... [صحيح مسلم، رقم الحديث 2766].

ولكن مع كل هذه التوجيهات والإرشادات يقع كثير من الناس في المخالفات، ضارين بتعاليم الإسلام عرض الحائط. فإذا جئنا لاختيار الجلساء والأصدقاء فحدث ولا حرج عن معاندة البعض لمن ينصحونهم ويصرونهم بمن حولهم من الأصدقاء، فيسيرون في الاتجاه المعاكس ويعدون أن تقديم النصيحة لهم في هذا الجانب هو تدخل في شؤونهم الخاصة وانتقاص من أهليتهم، فيواصلون السير مع أصدقاء السوء فيظلون عن الطريق السوي، فتظهر الانحرافات في سلوكهم وهم يعلمون أنهم على خطأ، ولكن الكبر والعناد يمنعانهم من الرجوع إلى الحق والصواب، فتضطرب نفوسهم، ويفتقدون الأمن النفسي، وقد يصابون بالاكتئاب العصبي وهذه هي النتيجة الطبيعية لمن عاند وكابر ولم يحسن اختيار الصحبة الصالحة.

أما بالنسبة إلى المجتمع الفاسد فتجد كثيرا من الناس وقعوا في الخطور، فتبدلت أحاسيسهم وأصيبوا بالسلبية في سلوكهم وأصبحوا إمعات وجنء يخشون الناس، فيسيرون مع التيار أينما سار بهم مع أن رسول الله حذر من ذلك، فعن حذيفة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: [لا تكونوا إمعة تقولوا إن أحسن الناس أحسنا وإن ظلموا ظلمنا، ولكن وطئوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا وإن أساءوا فلا تظلموا] (سنن الترمذي، رقم الحديث 2007). وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: [لا يحقر أحدكم نفسه] قالوا: يا رسول الله كيف يحقر أحدنا نفسه؟ قال: [يرى أمراً لله عليه فيه مقال، ثم لا يقول فيه، فيقول الله عز وجل له يوم القيامة: ما منعك أن تقول في كذا وكذا؟ فيقول خشية الناس فيقول: فإياي كنت أحق أن تخشى]. (سنن ابن ماجه، رقم الحديث 4008). ولذلك تجد هؤلاء الناس يتجنبون المسؤولية الجماعية، ويقنعون أنفسهم أو يتظاهروا بأنهم لا يسمعون ولا يرون ومن ثم لا يتكلمون عما يجري في مجتمعهم من مخالفات وانحرافات أخلاقية وقانونية ودينية... الخ، بحجة الابتعاد عن الشر، وعما يمكن أن يصيبهم من جراء مواجهة أو معارضة الأشرار والمخالفين، أو بحجة أن ما يجري لا يخصهم، أو أنهم لا يملكون السلطة أو القوة التنفيذية لمنع وردع المخالفين، وهذه كلها حجج واهية وتبريرية فقط. وإذا استمروا في هذا المسلك فسيكون مصير المجتمع بأكمله الهلاك وهي سنة من سنن الله في خلقه وفي الأمم السابقة، قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةَ يَنَّهُونَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ* وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ (هود: 116-117). أما إذا كانوا صادقين في دعواهم فلماذا لم يغادروا أو يهاجروا إلى مجتمع آخر تسوده العدالة والأمن النفسي والقيم والأخلاق الفاضلة، من قبل أن يأتيهم الموت ويقفون أمام الله وتُدْحَضُ حُجَجُهُمْ ويلاقون النهاية أو المصير السيئ كما جاء في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ

اللَّهِ وَاسِعَةً فَتَهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَاوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (النساء: 97). لكنه الحور وضعف الإرادة والسلوك السلبي ، ومن ثم الانحراف عن السواء في النمط العام للسلوك، والذي بدوره يؤدي إلى القلق والاضطراب وزيادة الحزن والحياة الضمكى.

خامسا : غفلة الإنسان عن أن الشيطان عدو له فانساق وراء وسوسته وتزيينه :

عندما خلق الله آدم عليه السلام أمر الملائكة أن يسجدوا له فسجدوا إلا إبليس (الشيطان) تكبر ولم يسجد ، فطرده الله من الجنة وجعله من الصاغرين، فطلب إبليس من الله أن يبقية إلى يوم القيامة فلبى الله له طلبه ، ومنذ ذلك الحين بدأت عداوة الشيطان لآدم وذريته، وهي مستمرة إلى يوم القيامة، وتعهد إبليس أمام الله انه سيغوي آدم وذريته أجمعين إلا قليلاً منهم، وسوف يستخدم كل وسيلة، وسيحيط بهم من كل جانب، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ * قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّمَّنْ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ * قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ * قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ * قَالَ فِيمَا أُغْوِيْتِي لِأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَاتِنَهُمْ مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾ (الأعراف: 11-17).

وبعد هذا الموقف أكد ويين المولى جل وعلا في كتابه الكريم أن الشيطان عدو مبين للناس فليحذروه ويتخذوه عدواً، قال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ (فاطر: 6).

وبعد هذه العداوة وإصرار الشيطان عليها والعمل المستمر بكل الوسائل لإضلال الإنسان وإغوائه، هل استعد الإنسان لهذه العداوة والمركة بينه وبين الشيطان؟، الجواب مع الأسف، إن غالبية البشر لم يستعدوا، ولذلك فشلوا وانهمزوا في معركتهم. مع أن الشيطان لم يجبرهم على أية مخالفة ارتكبوها إلا أنهم اتبعوه بإرادتهم ، والشيطان نفسه بين هذه الحقيقة يوم القيامة بعد أن ذهب كل إنسان إلى مصيره، قال تعالى: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَّ الْحَقَّ وَوَعَدْتَكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنَا بِمُصْرِخِي إِيَّيْ كَفَرْتُمْ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (إبراهيم: 22).

وهكذا فالعذاب في جهنم هو النتيجة النهائية لمن أستسلم للشيطان، إما في الدنيا فيكون الاضطراب والخوف وتأنيب الضمير هو النتيجة الطبيعية لارتكاب المخالفات والمعاصي التي وسوس بها الشيطان وزينها للإنسان.

سادسا : الغفلة عن أن الرزق والعمر كفضله الله وحدده للإنسان وهو في بطن أمه :

يعد الرزق والأجل من أكبر المسائل التي تهم الإنسان وتحدد سلوكه فالحصول على الرزق والاستكثار منه، وحب البقاء والخوف من الموت هي غرائز فطرية ينشغل بها الإنسان كثيراً، ويضعف أمامها غالباً. ومن عظمة الإسلام أن الله سبحانه وتعالى أخبر عباده أنه متكفل بأرزاقهم، وأن أعمارهم محددة من قبل أن يولدوا وهم في بطون أمهاتهم، فلا ينشغلون بذلك فيتعطلوا عن أداء مهمتهم في الحياة، فقد جاء في الحديث عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ: [إن أحدكم يَجْمَعُ في بطن أمه أربعين يوماً، ثم يكون علقه مثل ذلك، ثم يبعثُ الله إليه ملكاً بأربع كلمات: فيكتب عمله، وأجله، ورزقه، وشقي أم سعيد، ثم يُنفخُ فيه الروح...] صحيح البخاري، رقم الحديث (3332).

هذا إجمالاً، أما إذا تناولنا الرزق بمفرده، وكذلك الأجل، فالآيات القرآنية التي تدل على ذلك كثيرة؛ فبالنسبة للرزق، قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ...﴾ (الروم: 40). وقال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ ذَاتَةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا...﴾ (هود: 6).

أما بالنسبة للعمر أو الأجل فقد نبه المولى جل وعلى أن الإنسان لن يموت قبل انتهاء عمره الذي حدده الله له، وكذلك لن يبقى أو يعيش إذا انتهى أجله المحدد، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا...﴾ (آل عمران: 145).

وقال تعالى ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ (الأعراف: 34). ومع كل هذه الحقائق عن الرزق والأجل، نجد الكثير من البشر مخالفين وغير مستفيدين من كفالة الله للرزق وتحديد عمره.

فبالنسبة للرزق نجد الكثير من البشر يكفون ويلهثون وراء الرزق مستخدمين لذلك كل وسيلة -مشروعة وغير مشروعة- ويقعون في الأخطاء الاعتقادية والقولية والعملية، والنصوص الشرعية الآتية تؤكد ذلك، فيوجد فئة من الناس لا تُفرّق أو لا تهتم في أثناء طلبها للرزق هل هو حلال أو حرام، ولذا جاء في الحديث النبوي، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: [أيها الناس اتقوا الله وأجلوا⁽³⁾ في الطلب، فإن نفساً لن تموت حتى تستوفي رزقها، وإن أبطأ عنها، فاتقوا الله وأجلوا في الطلب، خذوا ما حلّ ودعوا ما حرم] (سنن ابن ماجه، رقم الحديث 2144).

أما عن المخالفات المتعلقة بالأجل، فتجد فئة من الناس تجمع بين الخوفين، الخوف من انقطاع الرزق، والخوف من الموت وانتهاء العمر، فيعيشون في المجتمع أذلاء خائفين، لا ينكرون منكراً ولا يحركون ساكناً، وليتهم أنصتوا لحديث رسول الله ﷺ وعملوا به لكي يعيشوا كراماً أعزاء، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: [ألا لا يمتنع أحدكم رهبة الناس أن يقول بحق إذا رآه أو شهده، فإنه لا يُقربُ من أجل ولا يباعد من رزق أن يقول بحق أو يُذكرُ بعظيم] (مسند ابن حنبل، 50/3). ولكنها النتيجة المحتومة، وهي الذل والهوان والخوف والقلق لمن لم يتق الله ويلتزم بمنهجه وتوجيهاته.

سابعاً : نسيان الإنسان أنه في ابتلاء دائم في السراء والضراء وأن طابع الحياة هو المشقة والتعب :

عندما يتفكر المرء في الطبيعة الإنسانية المتمثلة في القدرات المتنوعة التي منحها الله للإنسان وتسخير كل ما في السماوات والأرض له ، وكذلك التكوين المزدوج والموحد للإنسان - جسد وروح - وما يتبعهما من دوافع فيسيولوجية ونفسية تدفع الإنسان إلى العمل على إشباعها، وهذا الإشباع قد يتعارض في بعض الأحيان مع العقل والعرف والدين، سواء من حيث الكم أم الكيف. ويدير الإنسان هذا التفاعل بين القدرات والدوافع والقيم والدين والمجتمع والمسخرات من مخلوقات الله، فمنهم من ينجح وكثير من البشر يفشل!! لماذا؟!، إنها الفتنة، والابتلاء والاختبار.

فالحكمة من خلق الله للإنسان بهذه الصفات هي " للابتلاء". قال تعالى: ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ (الإنسان: 2). وكذلك المتغيرات والابتلاءات التي تحدث للإنسان في الحياة هي اختبار وابتلاء من الله للإنسان، قال تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ (الكهف: 7). وقال تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (الأنعام: 165).

والابتلاء قد يكون في السراء وقد يكون في الضراء، قال تعالى: ﴿ كُلَّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ (الأنبياء: 35). الحكمة من الابتلاء هي من أجل أن يظهر ويتميز المؤمن عن المنافق، ويُعرف الصابر والمجاهد، والتقي، والشاكر عن غيره من الناس الذين تخور قواهم ويضعف إيمانهم عند الشدائد، والحن والابتلاءات. والابتلاء بالضراء هو الذي يدركه عامة الناس، ولذا كثر التذكير به، قال تعالى: ﴿ وَتَبْلُوَكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالشَّرْمَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاغِبُونَ ﴾ (البقرة: 155-157).

والفتن التي يتعرض لها الإنسان تأتي بصور متعددة، فمنها "أن يتعرض المؤمن للأذى من الباطل وأهله، ثم لا يجد النصير الذي يسانده ويدفع عنه، ولا يملك النصرة لنفسه ولا المنعة، ولا يجد القوة التي يواجه بها الطغيان. وهذه هي الصورة البارزة للفتنة المعهودة في الذهن حين تُذكر الفتنة، ولكنها ليست أعنف صور الفتنة. فهناك فتن كثيرة في صور شتى، ربما كانت أخطر وأدهى.

وهناك فتنة الأهل والأحباء الذين يخشى عليهم أن يصيهم الأذى بسببه، وهو لا يملك عنهم دعماً، وقد يهتفون به لیسالم أو لیسسلم، وينادونه باسم الحب والقرابة، واتقاء الله في الرحم التي يُعرضها للأذى أو الهلاك... وهناك فتنة إقبال الدنيا على المبتلين، ورؤية الناس لهم ناجحين مرموقين، فتنف لهم الدنيا، وتصفق لهم الجماهير، وتحتطم في طريقهم العوائق، وتصاغ لهم الأمجاد، وتصفو

لهم الحياة، وهو مُهْمَلٌ مُتَكَرِّرٌ لا يحس به أحد، ولا يحامي عنه أحد، ولا يشعر بقيمة الحق الذي معه إلا القليلون من أمثاله الذين لا يملكون من أمر الحياة شيئاً.

وهناك فتنة الغربة في البيعة والأستيحاش بالعقيدة، حين ينظر المؤمن فيرى كل ما حوله وكل من حوله غارقاً في تيار الضلالة، وهو وحده موحش غريب طريد. وهناك فتنة من نوع آخر قد تراها بارزة في هذه الأيام، فتنة أن يجد المؤمن أمماً ودُولاً غارقة في الرذيلة، وهي مع ذلك راقية في مجتمعاتها، متحضرة في حياتها، يجد الفرد فيها من الرعاية والحماية ما يناسب قيمة الإنسان ويجدها غنية قوية وهي مُشاقَّةٌ لله.

وهناك الفتنة الكبرى أكبر من ذلك كله وأعنف. فتنة النفس والشهوة، وجاذبية الأرض، وثقله اللحم والدم، والراغبة في المتاع والسلطان، أو في الدعة والاطمئنان. وصعوبة الاستقامة على صراط الإيمان والاستواء على مرتفاه، مع المعوقات والمشبطات في أعماق النفس، وفي ملاسبات الحياة، وفي منطلق البيئة، وفي تصورات أهل الزمان. فإذا طال الأمد، وأبطأ نصر الله، كانت الفتنة أشد وأقسى، وكان الابتلاء أشد وأعنف، ولم يثبت إلا من عصم الله. وهؤلاء هم الذين يحققون في أنفسهم حقيقة الإيمان، ويؤمنون على تلك الأمانة الكبرى، أمانة السماء في الأرض، وأمانة الله في ضمير الإنسان”

(قطب، 1982م، ج5، صص 2720-2721). فرحلة الحياة ليست سهلة وليست مفروشة بالورود، لأن الله تعالى بين أن الإنسان منذ بداية تكوينه إلى حين وفاته في مكابدة ومشاققة، وجهد وكد، وكفاح وكدح، وأقسم على ذلك بقوله تعالى: ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ* وَأَنْتَ حَلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ* وَوَالِدٌ وَمَا وُلْدٌ* لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ (البلد: 1-4). وقال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾ (الانشقاق: 6).

“فالخلية الأولى لا تستقر في الرحم حتى تبدأ في الكبد والكدح والنصب لتوفر لنفسها الظروف الملائمة للحياة والغذاء بأذن ربها... وما يكاد الجنين يرى النور حتى يكون قد ضُغِطَ و دُفِعَ حتى كاد يخرجه من الرحم، ومنذ هذه اللحظة يبدأ الجهد الأشق والكبد الأمر، يبدأ الجنين يتنفس هذا الهواء الذي لا عهد له به، ويفتح فمه ورنثيه لأول مرة ليشهق ويزفر في صراخ يشي بمشقة البداية! وتبدأ دورته الهضمية ودورته الدموية في العمل على غير عادة! ويعاني في إخراج الفضلات حتى يُرَوِّضَ أمعاه على هذا العمل الجديد! وكل خطوة بعد ذلك كبد، وكل حركة بعد ذلك كبد. والذي يلاحظ الوليد عندما يهيم بالحبو وعندما يهيم بالمشي يدرك كم يبذل من الجهد العنيف للقيام بهذه الحركة الساذجة.

وعند بروز الأسنان كبد، وعند انتصاب القامة كبد، وعند الخطوة الثابتة كبد، وعند التعلم كبد، وعند التفكير كبد وفي كل تجربة جديدة كبد. ثم تفترق الطرق، وتتوسع المشاق، هذا يكدح بعضلاته، وهذا يكدح بفكره، وهذا يكدح بروحه، وهذا يكدح للقمة العيش وخرقة الكساء، وهذا يكدح ليجعل

الألف ألفين وعشرة آلاف... وهذا يكدر لملك أو جاه، وهذا يكدر في سبيل الله، وهذا يكدر لشهوة ونزوة، وهذا يكدر لعقيدة ودعوة، وهذا يكدر إلى النار، وهذا يكدر إلى الجنة... والكل يحمّل حمّله ويصعد الطريق كادحاً إلى ربه فيلقاه! وهناك يكون الكبد الأكبر للأشقياء، وتكون الراحة الكبرى للسعداء. إنه الكبد طبيعة الحياة الدنيا، تختلف أشكاله وأسبابه، ولكنه الكبد في النهاية، فأخسر الخاسرين هو من يعاني كبد الحياة الدنيا لينتهي إلى الكبد الأشقى والأمر في الأخرى، وأفلح الفالحين من يكدر في الطريق إلى ربه ليلقاه بمؤهلات تنهي عنه كبد الحياة وتنهي به إلى الراحة الكبرى في ظلال الله" (قطب، 1982م، ج6، ص ص 3909-3910). فإذا كانت هذه هي حقيقة الدنيا فلماذا يتأفف الإنسان ويضجر عند الابتلاء؟؟ فهيناً لمن أبتلى بالسراء فشكر، ولمن أبتلى بالضراء فصبر، وقد جاء في الحديث النبوي عن صهيب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: [عَجَباً لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ شَكَرَ فَكَانَ خَيْراً لَّهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ صَبَرَ فَكَانَ خَيْراً لَّهُ] (صحيح مسلم، رقم الحديث 299). ومع هذه الحقائق وهذا التوضيح عن الابتلاء والفتن في السراء والضراء التي يتعرض لها الإنسان في حياته، تجد الكثير من البشر يفشلون في الابتلاء والاختبار ويقعون في المخالفات العديدة. فالذي لا يعي حقيقة الابتلاء، ويفعل عنها أو يتناساها فسوف يفشل في التعامل مع الفتن والابتلاءات، ومن ثم يقع في المخالفات التي تسبب له التعاسة والحزن والهم والغم في الدنيا وعذاب النار في الآخرة، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ثامناً : علم نضعف الإيمان بالقضاء والقدر خيره وشره:

هذه المخالفة مرتبطة بالمخالفة السابقة -الابتلاء بالسراء والضراء- وهي تدور حول قضية الإيمان بالقضاء والقدر خيره وشره، فالخالق جل وعلا يُدَكِّرُ وَيُنَبِّئُ إلى أن كل أحوال الإنسان وتقلباته، والأحداث التي يواجهها -حلوها ومرها- وكل ما يحدث في الكون -صغراً أم كبيراً- معلوم عند الله ومراقب، وقد كتبت هذه الأحداث في اللوح المحفوظ قبل حدوثها، وقبل أن يؤكد الإنسان، قال تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (يونس: 61).

فضلاً عن هذا التنبه والتأكيد، فالقضاء والقدر خيره وشره، ومن غير الإيمان بهذا الركن لن يقبل الله من الإنسان أي عمل خيراً، ومصيره النار إذا مات، وهو غير مؤمن بقضاء الله وقدره خيره وشره، ولذا جاء في الحديث النبوي في قصة جبريل عليه السلام عندما جاء يسأل رسول الله ﷺ عن الإسلام، والإيمان، والإحسان... الخ، فأجابه رسول الله ﷺ عندما سأله عن الإيمان بقوله: [... أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسوله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره...] (صحيح مسلم، رقم الحديث 8).

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : [لا يؤمن عبد حتى يؤمن بالقدر خيره وشره، وحتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه] (سنن الترمذي، رقم الحديث 2144).

وليعلم الإنسان أن الكوارث التي تحدث في الأرض أو المصائب التي يتعرض لها الأفراد والمجتمعات، هي بإذن الله تعالى، وقد قدرها في الكتاب قبل حدوثها، قال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مَصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (التغابن: 11). وقال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مَصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنْ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ لَكَيْلًا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ (الحديد: 22-23). ولكن مع ضرورة الإيمان بالقدر خيره وشره، يجب أن نعلم علم اليقين أن للنجاح أسباب يجب الأخذ بها وكذلك للفشل أسباب يجب اجتنابها، فإذا أهمل الإنسان العمل بالأسباب فإنه يرمي نفسه إلى التهلكة، وقد نهانا الله تعالى عن ذلك بقوله: ﴿... وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ...﴾ (البقرة: 195). فالمرض مثلاً: نؤمن بأنه قدر من الله تعالى، ولكن يجب على المريض أن يعمل بالأسباب التي تؤدي إلى الشفاء، لأن تلك الأسباب هي من قدر الله أيضاً كما قال رسول الله ﷺ، فعن أبي خزيمة عن أبيه رضي الله عنهما قال : سألت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله أرأيت رقي نسترقيها، ودواء ننداوى به، وثقاة نثقيها، هل نردُّ من قدر الله شيئاً؟ قال : [هي من قدر الله] (سنن الترمذي، رقم الحديث 2065). وعن أسامة بن زيد رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : [الطاعون.. عذاب.. أرسل على من كان قبلكم فإذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه.] (صحيح مسلم، رقم الحديث 2218).

هذا بالنسبة للمرض والأوبئة وأسباب العلاج والوقاية منها، لكن المسألة لا تقف عند هذا الحد، وإنما هي قاعدة عامة تُطبَّق في جميع مناشط حياة الإنسان، حيث يجب على المؤمن أن يأخذ بأسباب القوة والتقدم والارتقاء، ولا يعجز أو يتكاسل أو يعتمد على الآخرين... الخ. لأن رسول الله ﷺ قال في الحديث الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه : [المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كلِّ خير، احرص على ما ينفعك، واستعن بالله، ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل : لو أني فعلت كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان] (صحيح مسلم، رقم الحديث 2664). وعلى الإنسان المؤمن -بعد الأخذ بالأسباب- أن يردد قول الله تعالى: ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (التوبة: 51). فإذا آمن الإنسان بالقدر خيره وشره، فسيكون لهذا الإيمان أثر إيجابي في نفسيته وحياته، وسيتصف بصفات مرغوبة، كالعزة والشجاعة والتحرر من عبودية العباد... الخ. فالرضا بالقدر والصبر على البلاء، والطمأنينة إلى حكم الله عز وجل، هي أهم القواعد التي يقام عليها السكن النفسي، وهي من أبرز الدوافع لانطلاق جميع الطاقة البشرية للعمل في هذه الأرض ضمن منهج الله، فلا التفات للوراء، ولا محطات للتحسر والندم، ولا لو كان كذا وكذا وكان كذا وكذا، ولكن قدر الله وما شاء فعل. ففي هذه العقيدة هدوء القلب وراحة

البدن والنفس والأعصاب، ومفارقة الهم والحزن، فلا تمزق نفسي، ولا توتر عصبي، ولا شذوذ، ولا إنفصام، وإنما رضا وسكينة وسعادة وراحة وطمأنينة، وبرد اليقين، وقرّة العين، وهناء الضمير، وانسراح الصدر والاطمئنان إلى رحمة الله وعدله، وعلمه وحكمته، فهو الملاذ والمعاذ من الوسواس والهواجس. “ (ياسين، 1978م، ص 111).

ولكن بعد بيان أهمية الإيمان بالقدر، وبيان فوائده وآثاره الإيجابية، نجد الكثير من البشر يقعون في أخطور والمخالفة، فيحرمون أنفسهم ثمار عقيدة القدر وآثارها الإيجابية، فبعضهم يفهم القضاء والقدر على أنه تواكل، وتعطيل للطاقات والقدرات، وعدم العمل بالأسباب، فيصابون من جراء هذا الفهم بالضرر الكبير في كل جوانب شخصياتهم وحياتهم. وبعضهم يصاب بالضرر النفسي والجسمي والمعيشي نتيجة المبالغة في الفرح بما أوتوا، أو المبالغة باللوم والحزن والتحسر لما فقدوا، أو المبالغة في الحذر والحيطه... الخ وكلها تؤدي الى التوتر والوسوسة والاضطرابات النفسية المختلفة، أعاذنا الله جميعاً منها.

الوقاية من الاضطرابات النفسية:

لكي يقي الإنسان نفسه من الوقوع في الاضطرابات النفسية، فما عليه سوى التجنب والابتعاد عن المخالفات والأسباب - السابقة - التي تؤدي الى الاضطرابات النفسية، عملاً بالحكمة التي تقول: الوقاية خير من العلاج، أو درهم وقاية خير من قنطار علاج.

فلا يلق بالإنسان الذي جعل الله له سمعاً وبصراً وعقلاً... الخ أن يلقي بنفسه إلى التهلكة وهو قادر على تجنب ذلك.

الهوامش :

- (1): (الكبير): جهاز من جلد أو نحوه يستخدمه الحداد للنفخ في النار لإشعالها.
- (2): (يحذيك) : أي يعطيك.
- (3): (أجملوا) : تأنوا وأعتدلوا وتحزروا .

المراجع :

- (1) : القرآن الكريم .
- (2) : ابن حنبل، احمد: (1981م). مسند احمد بن حنبل. ضمن موسوعة الكتب السنة، استنبول-تركيا: دار الدعوة.
- (3) : ابن رجب، زين الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن شهاب الدين. (د.ت). جامع العلوم والحكم. بيروت: دار المعرفة.
- (4) : ابن ماجة، أبو عبد الله محمد بن يزيد. (1981م). سنن ابن ماجة. ضمن موسوعة الكتب السنة، استنبول-تركيا: دار الدعوة.
- (5) : أبو داود، سليمان بن الأشعث. (1981م) سنن أبو داود. ضمن موسوعة الكتب السنة، استنبول-تركيا: دار الدعوة.
- (6) : السبخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل. (1981م). صحيح البخاري. ضمن موسوعة الكتب السنة، استنبول-تركيا: دار الدعوة ، {وأرقام الأحاديث أخذت من فتح الباري شرح صحيح البخاري للعسقلاني}.
- (7) : السترمذني، أبو عيسى محمد بن عيسى. (1981م). سنن الترمذي. ضمن موسوعة الكتب السنة، استنبول-تركيا: دار الدعوة.

- (8) : زيدان، علي حسن. (1993م) اختبار فاعلية نموذج العمل مع حالات المنحرفين من منظور إسلامي، تجربة حقلية على حالة ميدانية. أبحاث المؤتمر الثاني للتوجيه الإسلامي للخدمة الاجتماعية-المحور الثالث-ج1، القاهرة: جامعة الأزهر.
- (9) : الشريف، عدنان. (1992م). من علم النفس القرآني. بيروت: دار العلم للملايين.
- (10) : الشناوي، محمد محروس. (1993م). الإرشاد النفسي من منظور إسلامي، أبحاث ندوة علم النفس، القاهرة: المعهد العالمي للفكر الإسلامي.
- (11) : طه، فرج عبد القادر و محمود السيد وقنديل، شاكراً عطية و محمد حسين عبد القادر و عبد الفتاح، مصطفى كامل. (د.ت). معجم علم النفس والتحليل النفسي، بيروت: دار النهضة العربية.
- (12) : قطب، سيد. (1982م). في ظلال القرآن. (ط10). بيروت: دار الشروق.
- (13) : مرسى، كمال إبراهيم. (1988م). المدخل إلى علم الصحة النفسية. الكويت: دار القلم.
- (14) : مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج. (1981م). صحيح مسلم. ضمن موسوعة الكتب الستة، استنبول-تركيا: دار الدعوة.
- (15) : النجار، مسعد احمد. (1999م). الإرشاد النفسي في الإسلام. رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة الجزيرة، السودان.
- (16) : ياسين، عطوف محمود. (1988م). أسس الطب النفسي الحديث. بيروت: منشورات بحسون الثقافية.
- (17) : 17. ياسين، محمد نعيم. (1978م). الإيمان: أركانه، حقيقته، نوا قضة. عمان: جمعية عمال المطابع التعاونية.

